ثاني أكبر الكبائر

يقول رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلّم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّه كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّه وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ، ثُم يَلْقَاهُ مِن الْغَدِ وَهُو عَلَى حالِهِ، فَلا يَمْنَعُه ذلِك أَنْ يكُونَ أَكِيلَهُ وشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ إِلَى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:78-81]. ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا، وَاللَّه لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، ولتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأْطرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، ولَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّه بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ ليَلْعَنكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ». (أخرجه أبو داود)

إن خلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من الأخلاق الأساسية لدى أمّة المسلمين، ارتبطت به خيريتهم، ولا يمكن تصور أمّة المسلمين لا تنهى عن منكرات يُعمل بها، كما لا يمكن تصور أمة المسلمين لا تأمر بمعروف لا يُعمل به خاصة فيما كان مجمعا على وجوبه أو تحريمه. قال الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: 110].

والمقصد من هذا الخلق أن يزول المنكر أو يقلّ وإن لم يُزل بجملته وأن يحلّ المعروف محلّه مما ينتج مجتمعا صالحا منظّما سعيدا نتيجة انتشار الخير بين أفراده. فبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصلح المجتمعات وبدونه تنعدم الأخلاق ويتمكّن العصاة ويسود الفساد.

وقد ذكر الرسول ﷺ وسائل العمل بهذا الخلق ودرجاته في قوله: « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » (أخرجه مسلم). فالتغيير باليد يختص به ولاة الأمور وكل من كانت له سلطة شرعية تجيز له ذلك، أما التغيير باللسان فيخصّ العلماء وعامة المسلمين.

وبيّن العلماء ضوابط وآداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهمها بالنسبة للمنكَر: أن يكون ظاهرا دون تجسّس وواقعا في الحال؛ وبالنسبة للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر: أن يكون قادرا على ذلك بلا ضرر يلحقه أو مفسدة أعظم يتسبب فيها إنكاره، وأن يكون عالمًا بالأمر المأمور به أو المنهي عنه، عالما بحال المأمور، عالما بمآلات ما يقوم به، مراعيا للأولويات؛ ويكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالرفق وحسن الخلق مع المتابعة والاستمرار ما دام المنكر قائما.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط عن الباقين، وإذا تركه القادرون على القيام به أثم جميعهم. وقد يكون في بعض المواضع فرض عين على المكلّف كأن يكون في موضع لا يعلم به إلا هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو.

إن اكتساب العلم في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس غاية في حد ذاته، فليس التدين مجرد العلم بالدين، فالعلم وسيلة للعمل وليس مقصودا لنفسه، ولا عبرة بما يتلقاه المسلم من معارف في دينه إلا بقدر ما كان لها من أثر في عمله. يقول رسول الله ﷺ: «... إنَّ أفضَلَ النَّاسِ أفضَلُهم عمَلًا إذا فقُهوا في دِينِهم » (أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط).

وفي هذا المجال نريد أن نسأل ونحاسب أنفسنا عن عملنا بخلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا شك أن المنكرات الظاهرة في مختلف دول المسلمين عديدة، ولكننا سنتوقف عند منكر واحد عدّه النبي ﷺ ثاني أكبر الكبائر بعد الإشراك بالله وهو قتل النفس البشرية. قال عليه الصلاة والسلام: «أكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإشْرَاكُ باللَّهِ، وقَتْلُ النَّفْسِ، وعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وقَوْلُ الزُّورِ، – أوْ قالَ: وشَهَادَةُ الزُّورِ -» (أخرجه البخاري).

من المفترض أمام هذا المنكر وثاني أكبر الكبائر أن يقوم من كان قادرا على ذلك من المسلمين بالنهي عنه بالضوابط والآداب المقررة، وفي مقدمة هؤلاء ولاة الأمور والعلماء. ويتطلب ذلك إجرائيا اللقاء المباشر مع من وجب نهيهم، وإذا تعذر اللقاء المباشر فبكلّ الوسائل المتاحة للتواصل معهم، كما يتطلب ذلك تكرار النهي واستمراه دون توقف ولو بشكل يومي ما دام القتال متواصلا والمنكر قائما، وأن يصل النهي لكلّ من تعلّق به المنكر سواء كان رئيسا أو مرؤوسا. فإذا ما وقع أمر أو نهي ولم يحصل التغيير والامتثال فإنه يجب العود والاستمرار طالما أنّ المنكر لا يزال قائما حتى يزول، ولا تبرأ الذمة إلا بزواله. ولكن هذا ما افتقدناه في واقع الحال وافتقدنا استمراره وإن كانت هناك بعض المحاولات المتقطعة.

إن تقاتل المسلمين مستمر منذ مدّة زمنية طويلة تكاد تتجاوز المدّة التي عرفتها الحربان العالميتان معا في القرن الماضي، ويتسبب هذا التقاتل في فوضى وخراب كبير على المستويين الداخلي والعالمي، وينذر بعودة الاحتلال الأجنبي وبآثار كارثية على مستقبل العالم الإسلامي، ولو كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موجودا بالقدر والكيفية الضرورية لكان الحال أفضل بكثير مما هو عليه الآن. ففي الواقع هنالك نقص كبير وخطير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ممن يلزمهم هذا الواجب من القادرين عليه. هذا النقص أدّى إلى الاستهانة بأكبر الكبائر بعد الإشراك بالله وهي قتل النفس البشرية بغير حق. يقول النبي صلى الله عليه وسلّم: «مَن قاتَلَ تَحْتَ رايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أوْ يَدْعُو إلى عَصَبَةٍ، أوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فقِتْلَةٌ جاهِلِيَّةٌ، ومَن خَرَجَ علَى أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّها وفاجِرَها، ولا يَتَحاشَى مِن مُؤْمِنِها، ولا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فليسَ مِنِّي ولَسْتُ منه» (أخرجه مسلم).

وهذا النقص في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه إعانة للعصاة على المعصية، واندراس لمعالم الدين، وإلف للمنكرات، واستهانة بالدماء والأموال، مما يؤدي إلى منع نزول البركات والخيرات واستجابة الدعاء وعقاب الله. يقول النبي صلى الله عليه وسلّم: «إن الناسَ إذا رأَوا المنكرَ فلم يغيروهُ أوشكَ أن يعمهُم اللهُ بعقابِهِ» (أخرجه أحمد في مسنده).

إنّ الواجب على المسلمين أن يشعروا بخطورة ما يقع في أوطانهم وهم في شبه غفلة أو غيبوبة عنه، وأن يتآمروا بالمعروف، وأن يتناهوا عن المنكر قبل أن يبعث الله عليهم عقابا من عنده. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «والَّذي نَفسي بيدِهِ لتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتَنهوُنَّ عنِ المنكرِ أو ليوشِكَنَّ اللَّهُ أن يبعثَ عليكُم عقابًا منهُ ثمَّ تَدعونَهُ فلا يَستجيبُ لَكُم» (أخرجه الترمذي).